

الزوج

حق المرأة:

الكلام عن زوج يستدعى الكلام عن مكانة امرأة عند رجل، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة.

وإنما تعرف مكانة المرأة التي وصلت إليها بفضل محمد ودينه، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرت عليها في الجاهلية، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره - وبعد - بين أمم أخرى غير الأمة العربية..

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية وما صارت إليه بعد رسالة محمد.

كانت متاعا يورث تقسيم السوائم بين الوارثين، فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه صاحبه حق مشروع، تراث وتورث ولا يمنعها الزوج، أن تتصرف بمالها وهي في عصمته كما تشاء.

وكانت وصمة تدفن في مهدها قرارا من عار وجودها، أو عبئا تدفن في مهدها من فرارا من نفقة طعامها فأصبحت إنسانا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه. ولم تكن في البلاد الأخرى بأسعد حظا منها في البلاد العربية.

فلا نذكر شرائع الرومان واستبعادها للنساء. ولا نذكر المنتنطين في صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم إياها من الروح. وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه إنه هصر المرأة الذهبى بين الأمم الأوربية، وإن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال.

الفروسية عصر الحصان لا المرأة:

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له: عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر "السيدة المفداة".

وقد أجمله جون لا نجدون دافيز صاحب "التاريخ الموجز للنساء"^(١) فقال: إن عصر الفروسية كان معروفا بما لحظ فيه من فقدان الشباب على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر ولعنا نقلل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيال على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية إلا على اعتبار أنها عنوان ضيعة

إلى القارئ محادثة من كتاب أغاني الآداب والتحيات Chanson de Geste يروى فيها أن ابنة أوسيس Auseis جلست في نافذتها ذات يوم فعبر بها فتيان - هما جاران وجربرت وقال أحدهما "انظر. انظر يا جربرت: وحق العذراء ما أجملها من فتاة! فلم يزد صاحبه على أن قال: يا لهذا الجواد من مخلوق جميل! .. دون أن يلتفت بوجهه .. وعاد صاحبه على أن قال: يا لهذا الجواد من مخلوق جميل! .. دون أن يلتفت بوجهه ... وعاد صاحبه يقول مرة أخرى: "ما أحسبني رأيت قط فتاة بهذه الملاحظة. ما أجمل هاتين العينين السوداوين!" وانطلقنا وجربرت يقول له "ما أحسب أن جواداً قط يماثل هذا الجواد" وهي حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة، إذ قلة الاهتمام تورث الأزدراء ... والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الأزدراء .. وإليك مثلاً حادثة في الكتاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك بين Pepin تسأله معونة أهل اللورين. فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضباً ولطمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول: "شكراً لك. إن أرضاك هذا فأعطني ن يدك لطمه أخرى حين تشاء".

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيراً ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة، وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزء كل امرأة جسرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة.

"... ومتى كانت المرأة تزف إلى زوجها عفو الساعة وكثيراً ما تزف إلى رجل لم تره قبل ذاك، إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكري، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع. ومتى كانت بعد زفافها إلى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون في معظم الأحوال من الأميين - عرضة كلما واجهته بمخالفة - أترى سيدة القصر إذن واجده لها رحمة أو ملاذ من حياة الشقاء أو من صحبة قرين لبس لها بأهل؟".

وعصر أوروبا الحديث:

ولقد تقدم الزمن في الغرب من العصور المظلمة إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة في منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية..

ففي سنة ١٩٧٠، بيعت امرأة في أسواق إنجلترا بثلثين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها..

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢، محرومة حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة.

وكان تعلم المرأة سبة تسمئز منها النساء قبل الرجال، فلما كانت اليبابات بلا كويل تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ - وهي أول طيبة في العالم كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها، ويزوين ذبولهن من طريقها احتقاراً لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها.

ولما اجتهد بعضهم في إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصدر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصدر من يستشير أولئك الأطباء.

وهكذا تقدم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقديماً يرفعها من مراعاة الاستعباد التي استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية .
فماذا صنع محمد؟ وماذا صنعت رسالة محمد؟

المرأة في الإسلام:

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وحكم آخر من أحكامه العالية، أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات عند زوجها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكتسب الرجال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها . .

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم".

وأمر بمداواة ضعفها ونقصها لأن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمعت بها استمعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها".

وأوجب على الرجال أن يتجمل لامراته ويبدو لها في المنظر الذي يروقهها، فقال عليه السلام مما قال في هذا المعنى وهو كثير: "اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا، فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم".

وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يظهرها على عييه إن كان به عيب مستور: إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب" ..

وبلغ من رعاية شعورها ومدارة خجلها الذى فطرت عليه أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها: " فإذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها" .

وكان تأديبه المسلمين فى هذه الصلة غاية فى الكياسة والترفق، فقال بما قال فى هذا المعنى: " إذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلِكَ حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعنة .. الكيس، الكيس! "

معاملته لزوجاته:

وإنما نلخص ما أوجبه النبى على المسلمين عامة فى معاملاتهم لزوجاتهم، وهى دون ما أوجبه على نفسه فى معاملة زوجاته بكثير.

فكان يشفق أن نرينه غير باسم فى وجوههن، ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء، وإذا خلا بهن " مان ألين الناس ضحاكا بساماً: " كما قالت عائشة رضى الله عنها.

ولم يجعل من هيبة النبوة شدا رادعا بينه وبين نساته، بل أنساهن برفقة أنهن يخاطبن رسول الله فى بعض الأحاديث. فكانت منهن من تقول له أمام أبيها: " تكلم ولا تقل إلا حقا... " ومن تراجع أو تغاضبه سحابة نهارها، ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب فى شدته، فيعجب له ويهم بأن يبطش بابتته حفصة لأنها تجترى كما يجترى الزوجات

الأخريات. وإذا رأى النبي غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب
وقال له: ما لهذا دعوناك!

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن، أو كما قال: "خدمتك زوجتك
صدقة" ..

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهم وهو
ميل قبله:

"اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث إليهن
فتلطف في سؤالهن: "أين أنا غدا؟" ليلقن عند عائشة ويأذن له في الإقامة
بيتها. ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان في ذلك من
حرج.

حديث الإفك:

والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس، ولكنه في حالة
الرضى خلق لا يشق على كثيرين.

إلا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين وهو طيب المعاملة عندما
تعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسه من خطر وهو المساس بالوفاء في هذه
الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيّب ولا
أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي في قصة عائشة بنت الصديق وهي
أحظى نسائه لديه، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضى الله عنها:

"... وكان رسول الله إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأبها
خرج سمها خرج بها رسول الله معه. وأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها

سهى، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة، فقامت حين آذنا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى، وأقبلت إلى الرجل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع، فرجعت ألتمسه فحسبني ابتغاؤه. وأقبل إلى الرهط الذين كانوا يرحلون لى^(١) فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم ييلهن^(٢) ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقمة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن.

"ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب فتممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفتقدوننى فيرجعون إلى.

"فيينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيني فتمت وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج^(٣) فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فعرفنى حين رآنى واسترجع فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى، والله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة^(٤).

"فهلك من هلك فى شأنى، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول..

"واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك"

"... ويرينى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى. إنما يدخل رسول الله فبسلم ثم يقول: كيف

(١) أى يحملون الرجل على البعير.

(٢) يثلقهن اللحم والشحم.

(٣) سار آخر الليل.

(٤) أى فى شدة الحر.

تيكم؟ فذاك يرينى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نفهت وخرجت معى
أم مسطح قبل المناصع^(١).

"ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها، فقالت: تعس مسطح!

"قلت: بس ما قلت! أتسيين رجلا قد شهد بدرا؟

"قالت: أى هتاه^(٢)! أو لم تسمعى ما قال؟

"قلت: وماذا قال؟

"فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى مرضى فلما رجعت
إلى بيتى فدخل على رسول الله فسلم. ثم قال: كيف تيكم؟ استأذنت أن آتى
أبوى: أريد أن تيقن الخبر من قبلهما، فأذن لى.

"قالت أمى: يا بنية هونى عليك. فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة
عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها.

"قلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى
أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم.

"ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن يزيد يستشيرهما
فى فراق أهله. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من
براءة أهله، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود، وقال لرسوله الله: هم
أهلك ولا تعلم إلا خيرا.

"وأما على بن أبى طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها
كثير وإن تسأل الجارية تصدقك.

"فدعا رسول الله بريرة يسألها: هل رأيت من شىء يريك من عائشة؟

(١) أماكن فى خلاء المدينة، يتجمع الناس فيه بمكائد الناس.

(٢) كأنها تنعى عليها طبيعتها وقلة معرفتها بمكائد الناس.

قالت: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قد أغمضه^(١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن^(٢) فتأكله.

"... وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع اكتحل بنوم، وأبواى يظنان أن البكاء فالتى كبدى.. " فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنى قد بلغنى عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كانت أملت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب الله عليه.

" فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحسن منه قطرة فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله! فقال: والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله.

" فقلت لأمى: أجبنى عنى. فقالت كذلك والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله.

" قلت- وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن - إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به: فإن قلت لكم إنى بريئة، والله يعلم أن بريئة، لتصدقونى، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.
" ثم تحولت فاضطجعت على فراشى.

"....." فو الله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٣) من العرق فى اليوم الشتى.

(١) عيبه.

(٢) أى حيوان الذى يالف البيت.

(٣) الدر.

" فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال: "أبشرى يا عائشة! .. أما الله فقد برأك.

قالت لى أمى: قومى إليه.

"قلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمده إلا الله، هو الذى أنزل براءتى .. وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره .. فأقسم ألا ينفق عليه شيئا أبدا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

"فقال أبو بكر: والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، ورجع إلى مسطح النفقة التى كانت ينفقها عليه".

تلك هى القصة التى عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها. وهى مسبار صادق يسير لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين. فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضى التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النعمة وتثير فى النفس البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة، فلم يكن فى هذه الحالة إلا كرما خالصا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه، ولم يدع لحاكم من حالى الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع إليه فى جميع هذه الغايات.

سمع النبى حديثا يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين بل إلى خاصة ذويه الأقربين: حديثا يسمعه رجل معلى بن أبى طالب فى بره وكرم نحيزة فلا يرى بعده حرجا من الطلاق والنساء كثيرات.

سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بيّنة ولم يرفضه بغير بيّنة، وكان عليه أن يعود زوجته المريضة أو يحفوها إلى حين . فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفتحها في مرضها بما يخامر نفسه الكريمة، وبه من الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء وظل يسأل عنها سؤال متعجب ينتظر أن تشفى وأن تأتيه البيّنة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ في هذا الموقف الأليم بما توجيه الحمية وما توجه المروءة في آن .

وسأل من ينبغي أن يسأل: عليا وأسامة وهما بمقدام ولديه، وبريرة الجارية التي تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدها، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها في حظوتها لديه: زينب بنت جحش التي كانت أسرع من يقول لو علمت شيئا يقال: فاستعاذت بالله وقالت: "أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيرا" .

واتصل الحديث عائشة فاستأذنته في زيارة أهلها، وأن له أن يفتحها وقد وصل النبأ إلى سمعها ولم يثن له قبل ذلك وهو كاظم ما في فؤاده قادر على كتمانها مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو سقامها .

فافتحها لتبرئ نفسها أو تستغفر الله .

وغضبت البريء المشكوك فيه، وإنها لبريئة في نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش، وفي وضوح النهار، ولغير ضرورة، ومع رجل من المسلمين يتقى ما يتقيه المسلم تترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وأتفه، فكيف بها في مكانها الملعوم .

إلا أن النبي أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة، حذر أن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق إلى التهمة كان قد وفي الكرم والحمية والإنصاف والرحمة أجمعين .

نعم وفي الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤوا وأعادوا في ذلك الحديث المريب. وما أحد أرحم ممن يرحم المفتريين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطاعا ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه.

سماحة الكريم:

ولقد علمنا من وراية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبي بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد ميت للنبي ودينه، وكان هذا الرجل كما تقدم في بعض فصول هذا الكتاب بغیضا إلى المسلمين متهما عندهم يتوجسون منه ويسمون رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبي في قتله فما ضر النبي لو خلى بين المسلمين وبينه ويحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيدته ويستقيمون لمرض النبي منه ليأمنوا شره ويجلعوه عبرة لغيره؟

وإذا قيل إن بعد الله بن أبي كان من أصحاب العصية التي يحسب حسابها وتتقى بوادرها، فماذا يقال في مسطح وهو مكفول أبي بكر وصنيعته الذي يأكل من ماله؟ ما الذي أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبي وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن.

على أن العصية التي كان عبد الله بن أبي يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبي لو أراده بعقاب ولو كان أصرم عقاب، فما من عصية هي أقرب إلى رحم الرجل وأولى بالذود عنه ولده المشهور بیره. وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له إن النبي يهدر دمه ويقضى بموته..

إنما هي سماحة الكريم..

إنما هي السماحة التي شملت مسطحا كما شملت كبير المنافقين

وخرجت من حديث الإفك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين فى الرأى وغير مخلصين، وهى التى سبرت غورا فى قصة هذا الحديث فتكشف عن أطيب معاملة للزوجات فى أخرج الحالات، وتلك هى المعاملة الطيبة فى مثلها الأعلى، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين، وتطول مدى السنين مع نشاء مختلفات لا مع امرأة واحدة، وتطول فى جميع الحالات ومنها خالة الآلم البالغ ولا تنحصر فى حالة الرضى والطمأنينة وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوثام بين الأزواج فى العصر الحديث بعصر المرأة، لفرط ما أظن فيه المظنون من إكبار شأنها والدعوة إلى إنصافها.

تعدد الزوجات:

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبى وهو الهدف الثانى الذى يرميه المشهورون بالإسلام فيكثرون من رمية كلما تكلموا عن أخلاق محمد ﷺ وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشمائل النبوة، مخالفا لما ينبغى أن يتصف به هداة الأرواح.

السيف والمرأة!..

كانهم يريدون أن يجمعوا على النبى بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء.

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه.

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة فى السيف على ما نراه، لأن الاستسلام للشهوة آخر شىء يخطر على بال الرجل المحقق - مسلما كان أو غير مسلم - حين يبحث فى تعدد زوجات النبى، وفيما يدل عليه ذلك التعدد، وفيما اقتضاه.

قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول

الجنسية.. قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرد الجنسية Over-dexed لأنه جمع بين تسع نساء.

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضميرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها. هذا سواء الفطرة لا عيب فيه، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى، فهي الغريزة التي تلهم الحى فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء المالح فى موسم المعلوم فيطوى ألؤفا من الفراسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه؟.. أرأيت إلى العصفور وهو يبتنى عشه ويعود من هجرته إلى وطنه؟ أرأيت إلى الزهر وهو يفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه؟ أرأيت إلى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء؟ ما هى سننها إن لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معابة فيه..

هذا هو سواء لا مراة..

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه، وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططا فى طلابه عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطبائع..

فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟

من من بناء التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية؟

ومن ذا الذى يقول إن هذا عمل رجل مشغول؟

عم شغلته المرأة؟ ومن ذا نفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد
فى مسعاه؟

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى
المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال
وليس بعيب. ورسالة محمد إذن الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم
يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها. فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة
فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور.

وأعجب شىء أن يقال عن النبى إنه استسلم للذات الحس وقد أوشك
أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو
لا يستطيعها.

فقد شكون - على فخورهن بالانتماء إليه - أنهن لا يجدن نصيبهن من
النفقة والزينة، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم
النبى وهم بتسريحهن، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح.

وذهب إليه أبو بكر يوماً "يستأذن عليه وجد الناس جلوساً لا يؤذن
لأحد منهم ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده، فوجدا النبى جالسا وحوله
نساؤه واجما ساكنا. فأراد أبو بكر أن يقول شيئاً يسرى عنه، فقال: "يا
رسول الله لو رأيت بنت خارجة! سألتنى النفقة فقمتم إليها فوجأت عنقها"
فضحك رسول الله وقال: "هن حولى كما ترى يسألتنى النفقة!.. فقام أبو
بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنها ويقولان: "تسألن
رسول الله ما ليس عنده؟".

فقلن: "والله لا نسأل الله شيئاً رسول الله أبداً ليس عنده" ثم اعترزلهن
الرسول شهراً أو تسعة وعشرين يوماً فنزلت بعدها الآية التى فيها التخيير
وهى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ

وَأَسْرَحُكُمْ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها: "يا عائشة!.. إنى أريد أن أعرض
عليك أمرا أحب ألا تتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك.."،
قالت: "وما هو يا رسول الله؟" فتلا عليها الآية..

قالت: "أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟.. بل أختار الله ورسوله
والدار الآخرة..". ثم خير نساء كلهن فأجبن كما أجابت عائشة، وقنعن بما
هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرون بما هو أنعم منها.
علام يدل هذا؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة
وأغرقن في الحرير والذهب وأطايب الملذات.

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما
يرضيهن ولا يغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة
الله؟..

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط في ميئه إلى
النساء؟

هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سنته أو يخالف ما يحمد من سيرته
أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكروه عليه؟

لم يكلفه شيئا من ذلك، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها، ولم
نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون، بل رأينا رجلا يغلب
تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميئه إلى نساته، فيحفظها بما يملك منها

ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ولاشك في قدرة النبي عليها لو أراد.

رجل الجد والرصانة:

وهكذا نبحت عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرخي أوروبا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم.

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!!

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلى بها لعينه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!..

ونرى رجلا أثر معيشتة الكفاف والقناعة على إرضاء نساءه بالتوسعة التي كانت في وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!..

ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح. أو لعله أقبح فلاح!..

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فيه الظنون ذلك الخبط الذريع.

فمحمد كان معروفاً بين الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر يعرف فتى من قريش وأهل مكة.

كان معروفاً من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح، بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة، وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شائيه والناعين عليه والمقيين وراءه عن

أهون الهنات: تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان منشأه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات.. كلا.. لم يقل أحد هذا قط من شائته وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله لجرى على لسان ألف قائل.

ولما بنى بأولى زوجاته - خديجة - لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج لأنه بنى بها وهو فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشيرة، ونيف على الخمسين وأوتى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى.

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء للذات حس أو ذكرى متاع جميل لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه إليه، عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها.

قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزا بذلك الله خيرا منها، فقال لها مغضبا: " لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها.. آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء".

فلهذا أحب خديجة ووفى له وفضلها ولم يمح ذكرها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل.

أسباب تعدد زوجاته:

ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الملمات أن يجمع إليه تسعا من الفتيات الأباكار اللاتى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن

عليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأقخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة .

لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضى الله عنها، ولم يكن زواجه بها مقصودا في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة .

قالت عائشة رضى الله عنها: " لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم عثمان بن مظعون للنبي: " أى رسول الله! . ألا تزوج؟" .

قال: " من؟ "

قالت: " إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا؟" . .

قال: " فمن البكر؟" . .

قالت: " بنت أحب الناس إليك عائشة بنت أبي بكر" . .

قال: " فمن الثيب؟" . .

قالت: " سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك" .

ثم كانت هي أولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفاة خديجة وكان زوجها الأول - ابن عمها - قد توفى بعد رجوعه من الهجرة إلى الحبشة وكانت هي من أسبق النساء إلى الإسلام فأمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها إلى الحبشة فرارا من إعنات المشركين له ولها فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود أهلها فتصبأ وتؤذى، أو تتزوج بغير كفؤ أو بكفؤ لا يريد لها. فمضت النبي إليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من أهلها وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظرت إلى لذات حس ومال إلى متاع .

وكانت النبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينت بنت جحش ابنه عمته رضي الله عنها التي زوجها زيد بن حارثة بأمره وعلى غيره رضى

منها، لأنها أنفت - وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول الله - أن يتزوجها غلام عتيق.

هذه أيضا لم يكن "للذات الحس" المزعومة سلطان فى بناء النى بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينها، ولو كان للذات الحس سلطان فى هذا الزواج لكان أيسر شىء على النى أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهى تأباه فقد كانت ابنة عمه يراها من طفولتها ولا يفائجه من حسنها كان يجهلها يوم غرض عليها زيدا وشدد عليها فى قبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه واغلاظتها القول له كان رواج النى بها "حلا المشكلة" بيتية بين ربيب فى منزلة الابن وابنة عمه أطاعته فى زوج لم يقرن بالتوفيق.

أما سائر زوجاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ فما من واحدة منهن - رضى الله عنهن - إلا كان لزوجها بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة.

فأم سلمة كانت كنها مسنة يوم خطبها، كما قالت له معتذرة إليه لإعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها، جبرا لخاظرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومى من جرح أصابه فى غزوة أحد ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا: "سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلقك خيرا".

فقالت: "ومن يكون خيرا من أبى سلمة؟" فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبى سلمة، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفت فى الاعتذار، وهما أعظم المسلمين قدرا بعد النى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا فى غزوة بنى المصطلق فتزوجها ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجا عنهم وتالفا لقلوبهم جميعا وحسن إسلامهم وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء فى حرم رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله.

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فسكت وبث عمر أسفه للنبي فلم يكن للنبي ﷺ أن يرضى على وليه وصديقه بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر من قبله وقال: يتزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان.

ورملة بنت أبي سفيان تركت أباه لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبة ثم تنصر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل فأرسل النبي إلى النجاشي في طلبها لينقذها مع ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين. فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء، وكل للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى أُلجأته النجدة إلى التفكير فيه، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بأصرة النسب، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين، بما يعطف من قلبه ويرى من كبريائه.

وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة: سنة النبي ﷺ في معاملة جميع الناس ولاسيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهم في الذل بعد فقد الحماية والأقرباء، ولهذا خير صفة الإسرائيلية سيدة بنى قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها، فاختارت الزواج منه ﷺ وآية الآيات في رعاية الشعور الإنساني أنه ﷺ أنب صفيه بلالا لأنه مر وبابنة عمها على قتلى اليهود. فقال له مغيصيا: "أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟" واحتقرها زينب فلقلبها يوما باليهودية فهجرها شهرا لا يكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم.

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد ﷺ عن هذه الأسباب وشبهاتها من دواعي اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات في حين واحد...

ولا حرج - كلما أسلفنا على رجل قويم الفطرة أن يلتبس زواجه.

ولكن الذى حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة فى الاعتبار عند نظر النبى فى اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها، وفى إبان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة.

وأخر صورة يتصورها المنصف هنا هى صورة رجل فزع للذاته وجلس يتتقى واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع فإنما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه، ولا استثناء فى هذه الخصلة لزوجيه واحدة بين جميع زوجاته حتى التى بنى بها فتاة بكرا موسومة بالجمال، وهى السيدة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

إلا المشهرين المنقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا إلا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه، وذلك أنه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق، فى غير مشقة عندهم ولا معابة.

ونسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يعتسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات.

ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحسابا في حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختار جمالا مطلوبوا للمتاع.

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه.

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ وثبوت عدد النساء السلاتى جمع بينهن عليه السلام.. فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغصاب عنها، ولم أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها.

الوجهة الخلقية:

ونستطرد إلى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية في تعدد مناحيها، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الإسلامية في تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها.

فأوجز ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبي ﷺ لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة في بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات ولن ينكر هذا إلا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس المائل للعيان.

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحدا أن بناءه قد كان خيرا من الإخلاء

بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة إلى الكفر والضلالة، وكان خيرا من قطع تلك الأصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به، وهى ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا، وكل إمام عليهم بطباع الناس.

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعا ثم تحللت منها بإباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة. ولو اهتمت هذه الشرائع المدنية إلى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات.

فلاشك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذها فى معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حتى يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة فى الغرض الأكبر من كل زواج، ولولاها لا نتقض فى المجتمع الإنسانى أساس كل زواج.

ولاشك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات.

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة فى أوقات الحروب التى ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الإنسانى وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التى لا تنفع الأخلاق، ولا ترفع مكانة المرأة فى عصمة رجل أو فى تناول كثير من الرجال.

هذا شىء جائز.

بل هذا شىء أكثر من جائز، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه

وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى، بل اللوم عليه أن ينظر في شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التي تصدم كل عين.

ومن السهل - على من أراد - أن يسوس العالم في خياله بالفضائل التي تروقه وترضيه.. وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي يساس له يرضى بها ارتضاه وقد علم هذا كل رجال واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التي واجهت محمدا بادئ على غير مثال سابق يحتذيه، إلا ما ألهمه الله.

رأى نابليون:

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث؟..

وإنما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابا في الأطوار والعادات شبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية ونعنى به الثورة الفرنسية، وحضر انحدارا في الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذي أصيب له العرب في أواخر عهد الجاهلية، وأسس دولة، ونظر في سن قانون، وحاول ضروبا من الإصلاح.

نابليون قد طلق امرأته وأكره أحبار المسيحية على قبول هذا الطلاق، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعدّدات، غير الخليلات المجهولات..

ونابليون يقول عن المرأة "لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى. إلا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج، وإلا أحجم الناس عن الزواج إلا القليل".

"ولقد كان للرجل في العهد القديم سرّيات إلى جانب الزوجات، ولم يكن أبناء الزنى محترقين بين الناس احتقارهم في اليوم، إنه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة فتحمل هذه الزوجة الواحدة، وكأن الرجل في أثناء حملها أغرب أو عقيم.

"واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد والإفساد.

"إنهم فى فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم وإنما الواجب ألا ينظر إليهن مساويات للرجال، فما هن فى الحقيقة إلا آلات لتخريج الأطفال.

"وقد تمردن فى إبان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن ويدا لهن أن يؤلفن منهن فى الجيش.

"وكان لابد من صدهن، لأن المجتمع الإنسانى عرضة للخلل والفوضى إذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكانهن الحق فى الحياة. نعم إن المجتمع لوشيك إذن أن يتمزق بددا بغير انتهاء.

"وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة، فإذا نشبت الحرب بينهما، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسودا..

"ألا وإن الطلاق بالمرأة دون مرأه. فالرجل الذى يجمع بين زوجات لا يبدو عليه فى ذلك أثر كالأثر الذى يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال إنها تضحل إذن كل الاضحلال.

رأى لينين:

كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية فى العصر الحديث. فكيف اعترف بها "لينين" فى الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية؟..

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج، فلا رابط بين الزوجين أوثق م رابطة الرفيقيين فى الفندق أو الطريق. وليس أعجب ممن جعل الزوجات شريعة ملائكة إلا الذى جعله على هذا النحو شريعة عجمאות.

عقوبة الزوجات:

ولا نختم هذا الفصل عن النبي في حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات في الإسلام وللعقوبة التي اختارها ﷺ لأن عقوبة الرجل لامرأته في حالة الغض كمحاستته لها في حالة الرضى - كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده، ومكانة المرأة عامة في تقديره.

والقرآن ينص على العقوبات السائغة في حالة النشوز وعى العظة والهجر في المضاجع والضرر، والتسريح بإحسان: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبِأَنِّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والنبي ﷺ لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادما فضلا عن زوجة، بل روى عنه ما ينفي ذلك ممن عاشروه ولازموه.

بل كان ﷺ يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال: "أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟.. يضربها أو النهار ثم يجمعها آخره!..".

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب وإنما نص لعلاج النشوز الذي لا يستقيم بغيره، وقيد المفسرون بشروط تمنع الإيذاء وتحصره في القدر الذي يستقيم عليه الجزاء.

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدين به ولا يتأدين بغيره، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يستردلنه، وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات والمريضات اللاتي يشتھين الضرب كما يشتھي بعض المرضى ألوان العذاب.

إنما العقوبة التي آثرها النبي ﷺ هي الهجر الطويل أو القصير، بعد العظة والعتاب الجميل .

والهجر - ولاسيما الهجر في المضاجع - عقوبة نفسيه بالغه وليست كما سبق إلى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فإن فوات السرور والمتعة أياما، لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق .

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتافه نداء للجنس اللطيف: " أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها، ولا يتحقق هذا بجهر المضجع نفسه وهو الفراش، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع، وإنما يتحقق بالهجر في الفراش نفسه. وتعتمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى وربما يكون سببا لزيادة الجفوة وفي الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذي هو فيه، لأن الاجتماع في المضجع هو الذي يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر ويزول اضطرابها الذي أثارته الحوادث قبل ذلك. فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة رجي أن يدعواها ذلك الشعور والسكون النفسى إلى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة إلى صفصف الموافقة وكأنى بالقارئ وقد جزم بأن هذا هو المراد، وإن كان مثلى لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء ."

والذى نراه إن الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية وأن الحكمة في إثارها أعمق جدا من ظاهر الأمر كله رآه الأستاذ . فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشككه في صميم كيانه: في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه .

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل، ولكنها لا تأسى لذلك ما

علمت أنها فاتنة وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعته فيه من شوق إليها ورغبة فيها .

فليكن له ما شاء من قوة، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنها لا تقاوم، وحسبها أنها لا "تقاوم" بديلا من القوة والضلاعة في الأجساد والعقول:

إذا قاربت الرجل مضاجعة له وهي أشد حالاتها إغراء بالفتنة قى لم يباليها ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع فى وقرها وهي تهجس بما تهجس به فى صدرها؟

أفوات سرور؟ أحنين إلى السؤال والمعاتبة؟ كلا.. بل يقع وقرها أن تشك فى صميم أنوثتها وأن ترى الرحل فى أقدر حالاته جديراً بهيبتها وإذعانها وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة. فهو مالك أمره إلى جانبها وهي إلى جانبه لا تملك شيئا إلا أن تثوب إلى التسليم، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها .

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح، لأنها جربت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها. فإمّا تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها. فإذا لاذت بها فذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذلك.

وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة .

إنما العقوبة إبطال العصيان، ولن يبطل العصيان وبشئ كما يبطل بإحساس العاصى غاية ضعيفة وغاية قوة من يعصيه. والهجر فى المضاجع هو مثابة الرجوع إلى هذا الإحساس .

على أن عقاب النبى لزوحاته كان من الندرة بحيث لا يذكر لولا ما

تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامّة على السواء، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذي يصل المقطوع ويرأب المصدوع.

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات. وهو في حالتي عقابه وإحسانه إنسان على أكمل ما يكون الإنسان من رحمة وكيس وإنصاف.

وإذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذي لا حار أن ينقضى نحو الأربعين سنة عليها وهي على ذلك الصفاء والولاء الذي لم يعرف مثله في علاقات الرجال والنساء: هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم.
